



Damascus during the era of Nur al-Din Mahmod Bn Zanki

Shareef Moufak Rajab



دمشق في عهد نور الدين محمود بن زنكي شريف موفق رجباً (*)

1 (*) طالب ماجستير جامعة الإمام الأوزاعي _ لبنان _ مرحلة الرسالة، خريج معهد الفتح الإسلامي _ قسم التاريخ والحضارة _ دمشق.

ملخص البحث

تُشكلُ مرحلة نور الدين زنكي في دمشق منعطفًا مهمًا في تاريخ المدينة، أعاد لها ألقها وشيئًا من دورها الذي فقدته منذ القرن الرابع الهجري.

ويعود ذلك لشخصية نور الدين الفريدة من جهة، وتطورٍ مناحي الحياة في دمشق بعد دخولها تحت حكمه من جهة ثانية، إذ أصبحت رأسًا في مشروع التحرير، إضافة لما شهدته من تحولاتٍ إيجابية على الأحوال الإدارية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية عقب دُخوله.

فكان لابد من إبراز هذه المدة، وتوضيح دور نور الدين في تحول المدينة من حال إلى حال، يُضاف إلى ما سبق فهم شخصية نور الدين ودور رجال حكمه، وانعكاس كل ذلك على المدينة وأهلها. والاستفادة من تلك التجربة وفهم الدروس والعبر المستخلصة منها.

أولاً _ التعريف بنور الدين محمود بن زنكي:

١ _ اسمه ونسبه:

هو الملك العادل نور الدين، أبو القاسم محمود بن الملك الأتابك قسيم الدولة عماد الدين أبي سعيد زنكي بن الملك آق سنقر، التركي السلجوقي بالولاء.

ولي جدّه نيابة حلب للسلطان ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي، أما والده قسيم الدولة فنشأ بالعراق، وندبه السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه بإشارة المسترشد لإمرة الموصل وديار بكر والبلاد الشامية، وظهرت شهامته وهيبته وشجاعته، واتسعت ممالكه، حتى قتل في حصار جعبر سنة إحدى وأربعين وخمسائة، فتملك ابنه نور الدين حلب، وابنه الآخر الموصل^(٢).

٢ _ حياته وشخصيته:

وُلد نور الدين محمود في شهر شوال، سنة إحدى عشرة وخمسائة للهجرة، في مدينة حلب، التي تولّى حكمها بعد وفاة أبيه، وكان بدايةً مُلحقًا بالسلاجقة، ثم استقلَّ وضمَّ دمشق إلى ملكه، وامتدَّت سلطته في البلاد الإسلامية حتى شملت مناطق الشام والجزيرة ومصر وجانبًا من اليمن، وخطب له في الحرمين.

وُصف بأنه أسمر اللون، له لحية في حنكه، واسع الجبهة، حسن الصورة، حلو العينين^(٣)، لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف إلا من ملك له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة، متواضعًا دينًا زاهدًا يتهجّد كثيرًا، عارفًا بمذهب أبي حنيفة^(٤).

(2) سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج 20، ص 531.

(3) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج 10، ص 56.

(4) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج 10، ص 57.



البيمارستان النوري

كان معتبياً بمصالح رعيته، مداوماً على الجهاد، يُباشِر القتال بنفسه، مُوفِّقاً في حروبه مع الصليبيين، أيام زحفهم على بلاد الشام.

وكان نور الدين يتَّصف بالمسؤولية، وعلى هذا كثير من الأمثلة من حياته، فمنها يوم نزل الفرنجة على دمياط في مصر، فقُرئ عليه جزء من حديث كان له به رواية، فجاء في جملة تلك الأحاديث حديث مُسلسل بالتبسُّم، فطلب منه بعض طلبة الحديث أن يتبسَّم لتتمَّ السلسلة، على ما عُرِف من عادة أهل الحديث، ومن شدة اهتمام نور الدين رحمه الله بأمر المسلمين وقتها غضب من ذلك وقال: إنني لأستحيي من الله تعالى أن يراني مُتبسِّماً والمسلمون محاصرون بالفرنج⁽⁵⁾.

وكان نور الدين ذا هيبة ووقار، وقيل في وصفه: شديد في غير عنف، رقيق في غير ضعف، ضبط أجناده وأصحابه، ولم يجلس عنده أحد من غير أن يأمره بالجلوس إلا نجم الدين أيوب والد صلاح الدين، أما البقية فكانوا إذا حضروا يقفون قياماً حتى يأمرهم بالعود، ومع ذلك إذا دخل عليه الفقيه أو الصوفي أو الفقير يقوم له ويمشي بين يديه ويجلسه إلى جانبه. وكانت مجالسه مجالس حلم

(5) الروضتين في أخبار الدولتين، أبو شامة، ج2، ص 143.



وحياء لا يُذكر فيها قبيح القول، فليس فيها إلا العلم والدين وأحوال الصالحين، والمشاورة في أمر الجهاد^(٦).

وكان نور الدين يحافظ على لياقة بدنه وقوته، فكان يكثر لعب الكرة والصولجان، ويفعل ذلك بنية حسنة ألا وهي التدرُّب وترويض الخيل لتصبح أكثر طاعة لراكبها في الحرب^(٧). وكان زاهداً، عابداً، مُتمسِّكاً بالشرع، مجاهداً، كثير البر والأوقاف، له من المناقب ما يستغرق الوصف^(٨).

وأما شجاعته فقد كان يُقال فيه أنه لم يُرَ على ظهر الفرس أحسن ولا أثبت منه، شجاعاً صبوراً في الحرب يتعرض للمخاطر، أسرَّ بنفسه في بعض الغزوات بعض ملوك الفرنج، ومن ذلك حبه للجهاد والاستشهاد، يقول عن نفسه: تعرَّضتُ للشهادة غير مرة فلم يتفق لي ذلك^(٩).

٣_ أعماله ووفاته:

تُشكِّلُ مدة حكم نور الدين واسطة العقد في مشروع تحرير بيت المقدس، ولئن كان انطلاق المشروع على يد والده عماد الدين، وتوجيهه على يد صلاح الدين، إلا أن نور الدين استلم الحكم كوريث عن أبيه في حلب ومناطق الجزيرة الفراتية وما حولها، وما لبث أن دخل دمشق وضمَّ الموصل ومدَّ نظره باتجاه مصر وما بعدها.

رافق نور الدين والده في حياته، ولم يكن أكبر أولاده، لكن كان أقربهم منه، وشهد معه فتح الرها (٥٣٩ هـ)، وإنهاء الإمارة الصليبية الأولى، وكانت تلك أولى نجاحات المشروع على خطا فتح بيت المقدس، والسبب المباشر للحملة الصليبية الثانية التي ستستهدف دمشق.

رحل عماد الدين سنة ٥٤١ هـ وترك إرثاً يمتدُّ بين الموصل وحلب تقاسمه كل من سيف الدين غازي في الموصل، ونور الدين محمود في حلب، ومشروعاً حمل نور الدين على عاتقه مهمة إتمامه. تأثر نور الدين محمود بوالده، ولازمه وخاض معه المعارك وازداد خبرة يوماً بعد يوم، مستفيداً من حنكته وقوة شخصيته، وورث منه حلب، ومشروع التحرير.

فبدأ أول أعماله عقب وفاة والده بحملة عسكرية على أنطاكية وقلاع شمال الشام، كما توجه بحملة ضد القائد الصليبي جوسلين الذي أراد استعادة الرها، فكانت الصورة عند الصليبيين أن متاعب ستصيبهم، وأن نور الدين لا يقلُّ عن والده شجاعة ورياسة جأش.

أدرك نور الدين أهمية الاستمرار بالقضاء على عوامل التجزئة، فعمل على مد جسور التواصل مع حكام دمشق، وعقد معاهدة تحالف مع معين الدين أنر سنة (٥٤١ هـ - ١١٤٧ م)، تُوجِّت بزواجه من ابنته عصمة الدين خاتون^(١٠).

(6) الروضتين في أخبار الدولتين، أبو شامة، ج 1، ص 48.

(7) الروضتين في أخبار الدولتين، أبو شامة، ج 1، ص 35.

(8) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، ج 5، ص 185.

(9) الروضتين في أخبار الدولتين، أبو شامة، ج 1، ص 19.

(10) الدولة الزنكية، علي الصلابي، ص 451.

وكنتيجة لفتح الرها وصلت الحملة الصليبية الثانية (٥٤٣هـ - ١١٤٨ م)، فنفر نور الدين من حلب، كما شارك سيف الدين غازي من الموصل في الدفاع عن دمشق ضد الحملة الصليبية الثانية، وكان لمشاركتهما أبلغ الأثر في فشل الحملة وانسحابها^(١١).

عاد نور الدين بعدها وانشغل بالحصون القريبة من حلب، فخاض عدة معارك ضد إمارة أنطاكية، واسترد أقاليمها^(١٢).

ثم حصل أن توفي حاكم دمشق معين الدين أنر ليتسلم سدة الحكم فيها مجير الدين أبق، الذي عقد تحالفاً مع مملكة بيت المقدس مقابل حمايته، ليس هذا فحسب بل سقطت مدينة عسقلان^(١٣) من يد الفاطميين إثر مهاجمتها من قبل الصليبيين سنة (٥٤٨ هـ)، ولم يستطع نور الدين نجاتها لوجود إمارة دمشق التي منعت مروره^(١٤)، ما دق ناقوس الخطر، فالمدينة غدت في حالة من الضعف، وبدا الخطر كبيراً عليها، وبات جلياً أن موقع دمشق يمنع من الوقوف في وجه الصليبيين، ويُعرق مشروع التحرير، فبدأ نور الدين يرأسل أهلها، واعتمد على الأحداث حتى دخلها سنة ٥٤٩ هـ بفتح أبيض لم تُسفك به الدماء^(١٥).

ويُعدُّ ضمُّ مصر من أهم أعمال نور الدين، حيث كانت تحت حكم الفاطميين، الذين جرى على دولتهم ما جرى على الدولة العباسية من تسلط الوزراء وقادة الجند على الخليفة.

أرسل نور الدين ثلاث حملات بقيادة أسد الدين شيركوه سنة ٥٥٩ - ٥٦٢ - ٥٦٤ هـ، ترافقت مع حملات صليبية تنطلق من بيت المقدس بطلب من ضرغام بداية، ثم من شاور نفسه بعد القضاء على ضرغام.

بقي الأمر دون حسم حتى تمَّ قتل شاور في الحملة الثالثة، وتسلمَّ أسد الدين شيركوه منصب وزير الخليفة الفاطمي، حصل ذلك بعد أن أرسل الخليفة الفاطمي العاضد رسالة يستتجد فيها بنور الدين، بشعور النساء، ووعده بثلاث مصر وإقطاعات لقادة الجند^(١٦).

لم تطل أيام أسد الدين، فمات بعد شهرين، ولأن صلاح الدين كان الأصغر بين الأمراء اختاره الخليفة الفاطمي ليكون وزيره، فأحسن للأمراء والناس من سكان مصر فملك القلوب.

ثم حصل أن تصدَّى لحملة صليبية ضمتَّ قوات من بيزنطة مع مملكة بيت المقدس على دمياط.

لقد أدرك الصليبيون خطورة بقاء صلاح الدين في مصر، فقرروا الحملة، وكان لصمود سكان

(11) الدولة الزنكية، علي الصلابي، ص 454، 455.

(12) الدولة الزنكية، علي الصلابي، ص 498.

(13) عسقلان: بفتح أوله وسكون ثانيه ثم قاف وآخره نون، وهي مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين، لم تزل عامرة حتى استولى عليها الإفرنج خذلهم الله في السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة 548، وبقيت في أيديهم خمساً وثلاثين سنة إلى أن استنقذها صلاح الدين يوسف بن أيوب منهم في سنة 583 هـ. معجم البلدان، ج 4، ص 122.

(14) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ابن خلدون، ج 5، ص 283. - خطط الشام، محمد كرد علي، ج 2، ص 28.

(15) الدولة الزنكية، علي الصلابي، ص 464.

(16) الدولة الزنكية، علي الصلابي، ص 569.



دمياط، وسرعة إمداد صلاح الدين المدينة بالمؤن، والتعاون الصادق من الشام ومصر، أبرز الأسباب في صد الحملة^(١٧).

شكلت حملة دمياط نقطة انعطاف في الصراع في المنطقة، فقد باتت مصر الآن جنباً إلى جنب مع الشام تحت إمرة نور الدين زنكي، بعد أكثر من قرنين من الفرقة والتنازع، ثم تطور الأمر فقطع صلاح الدين الخطبة للخليفة الفاطمي سنة ٥٦٧ هـ، ليس هذا فحسب بل تمكن أيضاً من ضمّ المغرب الأدنى «طرابلس وبرقة» واليمن وفتح بلاد النوبة.

لقد تمّ ولأول مرة منذ أكثر من قرنين توحيد مصر والشام وصولاً للجزيرة الفراتية في مشروع التحرير.

وكان نور الدين يُدرك أهمية تحصين المدن، في الوقوف في وجه المشاريع المتعددة، فظهر عنده ما سماه البعض «نزعته للبناء» لنراه يُولي اهتماماً كبيراً لبناء الأسوار والقلاع، وما يُلحق بها من المرافق والمساجد والمشافي «بيمارستانات» والمدارس^(١٨) والخانات وغير ذلك من الدور التي يُرى أثرها واضحاً إلى اليوم في مدن الموصل وحلب ودمشق وغيرها.

وكان من أبرز تجليات وضوح الرؤية عند نور الدين أنه بنى منبراً في مدينة حلب سنة ٥٦٣ هـ، وجعل الحرفيين يعملون على تجميله ليضعه في المسجد الأقصى عند تحريره^(١٩)، ووضع المنبر فعلاً في الأقصى عقب وفاته بعشرين سنة! .. ويصف أبو شامة ذلك بقوله: «كان فتح القدس في همته من أول ملكه، فإن لم يكن حصل له مباشرة فقد حصل له تسبباً، فإن الفاتحين له رحمهم الله بنوا على ما أسسه لهم من الملك والتدبير، وهم أمراؤه وأتباعه وأجناده وأشياعه»^(٢٠).

وفي النهاية تُوفّي نور الدين في شهر شوال سنة تسع وستين وخمسائة، وهو مقيم بقلعة دمشق، بعلة الخوانيق^(٢١)، فلما أشاروا عليه بالفصد امتنع، وكان مهيباً فما رُجع^(٢٢)، وعهد بالملك إلى ابنه الملك الصالح، وهو ابن إحدى عشرة سنة.

ثانياً _ نور الدين في دمشق: ١_ دخول المدينة:

بعد تعرّض دمشق للحملة الصليبية الثانية سنة ٥٤٢ هـ توضح تماماً لحاكمها معين الدين أنر خطر الصليبيين، فتواصل مع نور الدين الذي لم يتردد في نجدة المدينة في وجه الحملة. لكن حصل أن تُوفّي أنر في شهر ربيع الآخر سنة ٥٤٤ هـ، وتسلم مجير الدين أبق حكم دمشق، وكان منه أن وقع اتفاقاً مع الصليبيين، فتزايد الخطر على المدينة التي غدت تدفع الجزية لمملكة بيت المقدس.

(17) الدولة الزنكية، علي الصلابي، ص 575.

(18) الأعلام، الزركلي، ج 7، ص 170.

(19) الروضتين في أخبار الدولتين، أبو شامة، ج 3، ص 392.

(20) الروضتين في أخبار الدولتين، أبو شامة، ج 3، ص 394.

(21) الخناق والخوانيق: أن يحدث في المبلغ ضيق. مفاتيح العلوم، الخوارزمي، ص 98.

(22) سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج 20، ص 531.



قلعة دمشق

لم يكن نور الدين بعيداً عن هذا خاصة مع هجوم الصليبيين على حوران⁽²³⁾ في ذات السنة، وقتلهم المسلمين، وقيامهم بسبي النساء والأطفال، فتحرّك نور الدين باتجاه بعلبك، وأرسل منها رسالة لمُجير الدين أبق، موضحاً له سبب مجيئه، وأنه ما حضر إلا لنصرة المسلمين في أطراف دمشق، الذين عجز أبق عن حمايتهم.

كان رد مجير الدين مَسْتَفْزِئاً «ليس بيننا إلا السيف»، فتحرّك نور الدين وحاصر المدينة، وكان ذلك سنة ٥٤٦ هـ.

استمرَّ الحصار مدة أسبوع، ثم انسحب نور الدين بسبب أمطار غزيرة هطلت في ذلك الوقت، ثم بدأ العمل على السيطرة على دمشق عبر خطة تتضمن محاور ثلاثة.

سعى نور الدين إلى ضمّ دمشق للمشروع، دون حرب تستنزف المسلمين، في وقت هم أشدّ حاجة لكل جهد وذلك بالتقرب من أهل المدينة.

تجلّى المحور الأول من خطة نور الدين بحملة دعائية بين أهالي المدينة، فعندما أدرك مجير الدين عزم نور الدين على أخذ المدينة عرض عليه الدعاء وسك العملة باسمه مقابل بقائه كحاكم لدمشق،

(23) حوران: كورة واسعة من أعمال دمشق من جهة القبله ذات قرى كثيرة ومزارع. معجم البلدان، ج2، ص 317.

وحرص نور الدين عند قدوم أبق لمسكره ولقائه به أن يلتقي بأهالي دمشق من العلماء وطلبة العلم^(٢٤)، الذين تشوقوا للقاء ذلك الحاكم الذي شاعت أخبار عدله وسيرته في حلب وغيرها .

أما المحور الثاني فكان مراسلته سراً لوجوه مدينة دمشق من أعيان وتجار، إضافة لقادة التنظيمات الشعبية فيها^(٢٥)، وهنا استفاد نور الدين من وجود نجم الدين أيوب في دمشق، وهو من سكان المدينة وأحد أعيانها^(٢٦)، وهو أخُّ لأسد الدين شيركوه أبرز قادة نور الدين ، فبذل نجم الدين جهوداً أثمرت في إرسال أعيان دمشق رسالة لنور الدين يعلنون فيها استعدادهم لحصر مجير الدين أبق في القلعة، وتسليم المدينة له دون قتال^(٢٧).

أما المحور الثالث في الخطة فكان فهم نور الدين شخصية أبق، والتعامل معه على هذا الأساس، وذلك بمراسلته واستشارته، تبع ذلك إرسال الهدايا له، ثم بدأ يُوقع بينه وبين قادة جنده، فأرسل له عن بعض أمرائه أنهم يرسلونه، ليقوم مجير الدين باعتقال البعض وتجريد البعض الآخر من منصبه، حتى لم يبق معه مَنْ يُعتمد عليه، وأصبح مكروهاً من الرعية، معزولاً عن الأعيان مجرداً عن القيادة^(٢٨).

عندها حانت الفرصة المناسبة فتحرك نور الدين، وأوعز لأنصاره، فثاروا وهاجموا أبواب المدينة من الداخل، وفتحوها لجيش نور الدين، ولم يجد مجير الدين سوى أن يلجأ للقلعة ويتحصن بها هو ومن تبقى معه، فأرسل له نور الدين الأمان مقابل الاستسلام، وإقطاعاً في مدينة بالس على نهر الفرات، فقبل وصفت المدينة لنور الدين.

لقد نجحت خطة نور الدين وحنكته في تأليف القلوب، وأبدى من القوة والعزم والصبر والتروي ما مكّنه من التعامل مع الأمراء المنحرفين عن جادة الصواب.

إن دخول نور الدين مدينة دمشق في شهر صفر عام (٥٤٩ هـ - ١١٥٤ م)، مُرحباً به من قبل الأعيان والأحداث^(٢٩)، يُعدُّ من أهم الإنجازات السياسية الخارجية له، بل يعتبرها البعض أعظم إنجازاته.

وهي حادثة تُعدُّ نقطة تحوّل، فغدت دمشق ولأول مرة منذ الحروب الصليبية ضمن دولة واحدة تمتدُّ وصولاً للجزيرة الفراتية ضمن مشروع التحرير، وهذا ما أفرغ الصليبيين، فوصفه المؤرخ وليم الصوري بأنه التغير المشؤوم بالنسبة لمصالح بيت المقدس^(٣٠).

(24) الدولة الزنكية، علي الصلابي، ص 463.

(25) الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية، ابن الأثير، ص 107.

(26) سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج 20، ص 590.

(27) الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية، ابن الأثير، ص 107. - الدولة الزنكية، علي الصلابي، ص 464.

(28) الدولة الزنكية، علي الصلابي، ص 464.

(29) جماعات عسكرية شعبية كان لها أبرز الأدوار في تاريخ دمشق بين القرنين الخامس والسادس. تاريخ السلاجقة في بلاد الشام، سهيل طقوش، ص 62.

(30) الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، سهيل زكار، ج 3، ص 275.



وهذا بالطبع لأن نور الدين بات الآن مُواجهاً لمملكة بيت المقدس، ليس هذا فحسب، بل إن كان الصليبيون قد بسطوا سيطرتهم على طول الساحل الشامي فالداخل كله بات في مواجهتهم في توازن بدت فيه ملامح رجحان كفة نور الدين، ما سيتبع ذلك من فتح الطريق نحو القاهرة، التي ستصبح محطاً أطماع متبادلة بين الطرفين.

إن دخول نور الدين مدينة دمشق نقلها من حال إلى حال، فبدأت تعود لألقها شيئاً فشيئاً، وبدأت تعود لتأخذ دورها في المنطقة، وبدأت ملامح نهضتها واضحة للعيان.

لقد ساهم هذا الحدث أكثر بصعود نجم نور الدين، لكنه لم يتخلَّ عن حنكته، ولم تأخذه نشوة الانتصار، لذلك نجده يُجدد الهدنة مع مملكة بيت المقدس مدة سنتين⁽³¹⁾.

٢_ النظام الإداري في دمشق أيام نور الدين:

أخذ نور الدين من دمشق عاصمة له، وشرع بعمليات البناء والعمران، لتشهد المدينة ما شهدته المدن الأخرى في ظل الحكم النوري، ونرى نهضة في بناء المساجد والمدارس والبيمارستانات «المشافي» والخانات، إضافة للأوقاف الكثيرة التي تمَّ رصدها لمصالح السكان.

لقد وصف المؤرخون دمشق في عهد نور الدين على أنها عاصمة لدولة مترامية الأطراف، تمتدُّ من الموصل وديار الجزيرة شمالاً وحتى برقة في الساحل الليبي غرباً، وصولاً للحجاز جنوباً، وقد أطنبوا في وصف سياسة نور الدين الذي غير وجه المدينة، فاستقدم لها كبار العلماء والحرفيين، ما انعكس بشكل إيجابي على الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية فيها.

لقد وصف الذهبي دخول نور الدين دمشق بقوله: «وسلَّمت إليه دمشق للغلاء والخوف، فحصَّنها، ووسَّع أسواقها، وأنشأ المارستان ودار الحديث والمدارس ومساجد عدَّة»⁽³²⁾.

كانت الدولة في أواخر أيامه مُقسَّمةً إلى عدة أقاليم، هي: إقليم حلب، وإقليم دمشق، وإقليم الموصل، وإقليم مصر، وإقليم اليمن، وإقليم الحجاز، ولكل إقليم إدارته المحلية التي تتألف من عدد من الموظفين الذين يُعيِّنهم نور الدين، وجميع الأقاليم تتبع السلطة المركزية في دمشق.

اعتمد نور الدين النظم الإدارية ذاتها التي أرسى السلاجقة قواعدها، لكننا نجده يُولي اهتماماً أكبر لكفاءة الرجال، الذين وإن انتموا لأعراق ومناطق مختلفة، ولكن جمع بينهم أمر واحد وهو تلك الميزات التي تُؤهلهم ليكونوا في دولته⁽³³⁾، فحباه الله عز وجل برجال طبعوا بطابعه من الزهد والتعفف والتفاني في أداء الواجب والعمل لمصلحة الأمة⁽³⁴⁾.

ومن أبرز هؤلاء: أسد الدين شيركوه وبنو أيوب. وقد كان أسد الدين أشبه بوزير أول لنور الدين،

(31) الروضتين في أخبار الدولتين، أبو شامة، ج 1، ص 260.

(32) سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج 20، ص 532.

(33) الدولة الزنكية، علي الصلابي، ص 259.

(34) الدولة الزنكية، علي الصلابي، ص 269.

واستمرت علاقته به حتى بلغت قمته في ترشيحه ليقود الحملة لمصر. وكذلك اعتمد نور الدين عليه في الاتصال بأخيه نجم الدين في دمشق، والتمهيد لدخولها سلماً، فارتفعت مكانة الأخوين عند نور الدين، وبرز أولاد نجم الدين: صلاح الدين وتوران شاه كأmirين مُتقدمين في الدولة.

ومن الشخصيات التي اعتمد عليها نور الدين أيضاً: مجد الدين ابن الداية وإخوته، ومجد الدين هو أخو نور الدين من الرضاة وتربى معه، وكان مجد الدين مع أخوته أعز الناس على نور الدين، قد أسكنهم معه في قلعة حلب، ولا يصدر إلا عن رأيهم^(٣٥)، فعظم نفوذهم في حلب في حياة نور الدين^(٣٦).

ومن أبرز الشخصيات العماد الأصفهاني الذي دخل دمشق سنة ٥٦٢ هـ ليكون في خدمة نور الدين، فصار رئيس ديوان الإنشاء وكاتب السر، حتى وفاة نور الدين. وقد اعتمد عليه نور الدين فضلاً عن ذلك في عدد من السفارات، وفوض إليه الإشراف على المدرسة النورية بدمشق، التي سيصبح اسمها بعد ذلك: المدرسة العمادية نسبة إليه. وما زال نور الدين يعتمد عليه حتى أصبح المسؤول الأول عن الكتابة والإشراف الإداري والاستيفاء المالي^(٣٧).

٣- أبرز وظائف الدولة في عهد نور الدين:

أ- النائب:

وهو من ينوب عن نور الدين في الإقليم، ويكون مسؤولاً عن الشؤون العسكرية والإدارية فيه، ومن صلاحياته توقيع المراسيم والمنشورات، وترشيح أسماء نوابه في المدن التابعة للإقليم، ومن أشهر النواب: مجد الدين ابن الداية، الذي بقي مدة خمسة عشر عاماً نائباً لنور الدين في حلب.

ب- الوزير:

ويكون مسؤولاً أمام نور الدين عن جميع الدواوين والسجلات المتعلقة بالجند والبريد والخزينة، وهو رئيس الجهاز الإداري المركزي.

وقد كان الوزير في أيام السلاجقة هو المدبر الوحيد لشؤون الدولة، لكن مع استحداث منصب النائب قلصت صلاحياته، فالنائب يتمتع بجميع صلاحيات السلطان ضمن منطقة مسؤوليته، ويرتبط بالسلطان مباشرة.

ولم يكن ثمة وصف دقيق للوظائف وصلاحياتها، لذلك نجد تداخلاً بين وظيفة الوزير ووظيفة ناظر الديوان، المسؤول المباشر عن الدواوين، واعتمد الأمر على كفاءة من يتولى المنصب وعلى شخصيته^(٣٨).

ج- المستوفي:

وترتبط وظيفته بالأموال، فهو المسؤول عن تقدير الأموال المستحقة وجمعها من مصادرها،

(35) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، سبط ابن الجوزي، ج 8، ص 324.

(36) الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية، ابن الأثير، ص 163.

(37) البرق الشامي، الكاتب الأصبهاني، ج 1، ص 10-11.

(38) الدولة الزنكية، علي الصلابي، ص 265.



نقش تأسيس برج في سور دمشق غربي باب كيسان على يد نور الدين محمود (٥٦٤هـ = ١١٦٨م)

وتخصيص الأموال اللازمة للجند وغيرهم من أجهزة الدولة ومؤسساتها، وله نواب في الإقليم يقومون بنفس الواجبات ويعملون بإمرته.

يستقر المستوي في العاصمة في ديوان يسمى ديوان الاستيفاء، ويساعده عدد من الكتبة، وهو المسؤول عن موازنة الدولة.

ويتبع المستوي في موضع آخر هو المشرف، يترأس ديوان الإشراف، ومهمته تدقيق الحسابات والموازنة بين الصادرات والواردات لخزينة الدولة.

د - الأمير الحاجب:

ويتولى كل ما يتعلق بشؤون الجند، أو ما عرف بديوان الجيش، فيرتبط عمله بشؤون الخيل والسلاح والرواتب والإقطاعات.

هـ - الوالي:

ويعد مسؤولاً عن مدينة أو بلدة أو قلعة في الإقليم الذي يتولاه النائب، وترتبط به واجبات إدارية تشمل تنفيذ الأحكام ومراقبة الأسواق ومحاسبة المخالفين للقانون، هذا بالنسبة لوالي المدينة أو البلدة، أما والي القلعة فهو يُعتبر قائداً عسكرياً عليه واجبات إدارية ضمن القلعة ذاتها.

و - الشحنة^(٣٩):

ويُعيّن من قبل السلطان، وهو الحاكم الإداري للمدينة، المسؤول عن الأمن والنظام فيها، ويكون رجال الشرطة بإمرته، وقد تولّى تورانشاه بن نجم الدين أيوب شحنة دمشق، ومن بعده أخوه صلاح الدين.

(39) الشحنة أو الشحنة كلمة تركية بمعنى قائد الحامية. الدولة الزنكية، علي الصلابي، ص 267.

ز - القاضي:

تمتع منصب القاضي في عهد نور الدين باستقلال تام، ولاهتمامه بإرساء العدل اختار لهذه الوظيفة أشهر العلماء والفقهاء ممن عرف بالتقوى والاستقامة.

وكان نور الدين قد أنشأ محكمة عليا أطلق عليها اسم: دار العدل، وجلس فيها بنفسه للنظر في القضايا المتعلقة بكبار رجال الدولة، الذين طلبهم للمحاكمة، بعد أن لاحظ تهيب القاضي منهم.

وروي أن أحد المدعين طلب نور الدين في قضية، فنزل وجلس بين يدي القاضي، وطلب منه أن يساوي بينه وبين خصمه في المحاكمة، فلم يجرؤ أحد بعد ذلك من الأمراء والقادة على مخالفة الشريعة أو ظلم أحد من الرعية.

وكان كمال الدين الشهرزوري أشهر القضاة في دولة نور الدين، كان قاضياً لدمشق فجعله قاضياً للقضاة في كامل الدولة، وكلفه بأعمال أخرى كالإشراف على دار الضرب وأوقاف الدولة وبناء أسوار دمشق ومدارسها وبيمارستانها، حتى وُصف بأنه كان الحاكم المطلق في دمشق^(٤٠).

٣ - أهم مميزات النظام الإداري عند نور الدين:

أ - السعي الدؤوب لإرساء العدل:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي يرويه أبو هريرة رضي الله عنه: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ» وذكر: «إِمَامٌ عَادِلٌ»^(٤١).

وعنه صلى الله عليه وسلم: «أَفْضَلُ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِمَامٌ عَادِلٌ رَفِيقٌ، وَشَرُّ عِبَادِ اللَّهِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِمَامٌ جَائِرٌ»^(٤٢).

إن من أهم الواجبات في دين الإسلام إقامة العدل، وقد كان نور الدين قدوة في عدله، قامت سياسته على العدل الشامل، ونجح في ذلك حتى اقترن اسمه بالعدل فسُمي: بالملك العادل^(٤٣).

جعل نور الدين المؤسسة القضائية مستقلة وذات صلاحيات واسعة، وتكلفت جهوده بإنشاء دار العدل^(٤٤)، وهي بمثابة محكمة عليا لمحاسبة كبار الموظفين، حيث كان يجلس بنفسه^(٤٥)، وثبت لنور الدين أهمية هذه الدار فعمّمها في غير دمشق، فمن الأمراء من لا يُقدم القضاة على محاسبتهم، فكانت الحل لمثل هذه الإشكاليات.

ومما يُسجل لنور الدين أنه لم يُفرّق بين أبناء الرعية على أي دين كانوا، فيذكر ابن الأثير في

(40) الدولة الزنكية، علي الصلابي، ص: 268.

(41) صحيح البخاري، البخاري، دمشق، الحديث رقم 660، ص 165.

(42) شعب الإيمان، البيهقي، ج 6، ص 16، حديث رقم: 7371.

(43) سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج 20، ص 531.

(44) الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية، ابن الأثير، ص 168.

(45) الروضتين في أخبار الدولتين، أبو شامة، ج 1، ص 62.



الدهاليم امر عارفة ان اشوزة ولا اوتاب مولانا الملك العادل
 هذ عن اليتاوتو المقاسر محمود زكراوت تقض عفا الله التواب
 فلمولواك يوم الحساب ابتعافه الله ويفر بين شيرى خرم

نقش تجديد سور دمشق على يد نور الدين محمود (٥٦٠هـ = ١١٦٤م)

الكامل أنه كان: «يُنصف المظلوم ولو أنه يهودياً من الظالم ولو كان ولده أو أكبر أمير عنده»^(٤٦). وهنا نتلمس زاوية أخرى في شخصيته، فاليهود والنصارى عوملوا في دولة نور الدين كمواطنين لهم حق الرعاية الكاملة، ولم يُعرف عنه أنه هدم كنيسة أو آذى قساً أو راهباً، وكان الصليبيون إن دخلوا بلداً قتلوا جلةً أهله المسلمين، ولو أنه عاملهم بالمثل لكان له عذر، لكنه كان عادلاً لدرجة أن الصليبيين كانوا إذا خرجوا من بلد آمن النصارى فيه لعدل نور الدين وإنصافه^(٤٧).

ولعل أبرز صور العدل عند نور الدين انقياده للقضاء، فقد طلب مرة من قبل أحد المدعين، ولم يأنف أن يجلس بين يدي القاضي كمال الدين بن الشهرزوري، الذي ساوى بينه وبين خصمه في المجلس. ولم يكن نور الدين يُصدر العقوبة على الظنة والتهمة، بل يطلب الشهود على المتهم، فلم يأخذ أحداً دون دليل، فأمنت البلاد، وقلّ المفسدون ببركة العدل^(٤٨).

ب - الشورى؛

كان مجلس نور الدين أشبهَ بندوة يجتمع إليها العلماء والفقهاء للبحث والنظر، وقد أورد أبو شامة وثيقة بتّ محضّر إحدى جلسات الشورى مع أعيان دمشق من القضاة والمشايخ بصدد عدد من قضايا الوقف^(٤٩).

كانت جلسات الفقهاء عند نور الدين ومناظراتهم نشاطاً جاداً من أجل مواجهة المشاكل بالحلول المُستمدّة من شريعة الإسلام.

لم يكتف نور الدين بهذا، بل كاتب العلماء والأئمة في زمانه للاستشارة أو للسؤال عما أشكل عليه، فهذا ابن الجوزي يذكر في كتابه المنتظم أن نور الدين كاتبه مراراً^(٥٠).

(46) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج 10، ص 57.

(47) الدولة الزنكية، علي الصلابي، ص 232.

(48) عيون الروضتين، أبو شامة، ج 1، ص 364.

(49) الروضتين في أخبار الدولتين، أبو شامة، ج 1، ص 74.

(50) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ابن الجوزي، ج 18، ص 210.

ج - النظام المالي:

إن ما يُميّز عهد نور الدين هو أن خزائن الدولة كانت دائماً تحظى بالقدر الكافي من المال، رغم الإنفاق الكبير على المعارك والخدمات الاجتماعية، وإسقاط الكثير من المكوس والضرائب التي كانت ترفد خزينة الدولة، فقد كانت الدولة قادرة على الإنفاق على المجالات العسكرية والاجتماعية والتعليمية بسبب سياسة نور الدين الحكيمة^(٥١).

فقد اعتمد الزنكيون نظام الإقطاع الحربي للصرّف على جيوشهم، مُستمرّين على ما نَظّمه السلاجقة، أي ارتبط الإقطاع بالخدمة الحربية، فالتزم الأمير المُقطّع بتقديم العساكر وقت الحرب، مُجهّزةً بكامل عتادها وعدتها، وهو إقطاع وراثي، ومنح الإقطاع لم يكن معناه تملك الأرض وإنما مجرد الحق أن يجمع لنفسه وأجناده مجموعة الضرائب مقابل الواجبات المدنية والعسكرية الملزم بها^(٥٢).

وشكّل كلٌّ من الزكاة والخراج والجزية جزءاً مهماً من موارد الدولة، تُؤخذ وفق أحكام الشريعة، إضافة لما كان يدخل خزينة الدولة من أموال الغنائم وفداء الأسرى، فالدولة كانت دائماً في حالة حرب، وكانت مبالغ هذه الأخيرة كبيرة لدرجة أن نور الدين كان يحلف بالله أن جميع ما بناه من المدارس والربط والبيمارستانات وغيرها من فكاك أسرى كان قد أسرهم في معركة حارم ٥٥٩ هـ، وقد بلغت تلك الفدية ستمائة ألف دينار إضافة للخيل وال سلاح^(٥٣)، هذا من معركة واحدة، فكيف بسائر المعارك التي انتصر فيها نور الدين، والتي تغطي مدّة حكمه كلّها^(٥٤).

وكان نور الدين قد استفاد من خزائن والده التي آلت إليه، ووصف ابن الأثير تلك الخزائن أنها نُقلت على ستمائة جمل خلا البغال^(٥٥). كل هذا مع أمن واستقرار داخلي وما رافقه من أمانة التزامها نور الدين وألزم موظفيه بها، فنراه يعتبر نفسه خازناً لأموال المسلمين يجب عليه أن يصرفها في مصالحهم فقط.

أما بالنسبة للضرائب فتجلّت سياسة نور الدين بإلغائها أو تخفيفها قدر الاستطاعة عن كاهل الناس، فقد أورد أبو شامة في الروضتين أن نور الدين لما دخل الموصل سنة ٥٦٦ هـ أمر بإسقاط جميع الضرائب والمكوس وأنشأ بذلك منشوراً يُقرأ على الناس^(٥٦)، حصل مثل هذا في مناسبات عدة وتكرّر في عهده، ومنها على سبيل المثال لما دخل دمشق^(٥٧) فعل نور الدين ذلك، رغم أنه لم يصرف أموال هذه الضرائب إلا في الإنفاق على العسكر^(٥٨) وفي مصالح المسلمين.

(51) الدولة الزنكية، علي الصلابي، ص 273.

(52) مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين، عبد الله الغامدي، ص 26.

(53) مرآة الزمان، سبط ابن الجوزي، ج 8، ص 247.

(54) الدولة الزنكية، علي الصلابي، ص 277.

(55) الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية، ابن الأثير، ص 98.

(56) الروضتين في أخبار الدولتين، أبو شامة، ج 2، ص 168.

(57) سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج 20، ص 532.

(58) الروضتين في أخبار الدولتين، أبو شامة، ج 1، ص 54.

ثالثاً _ الحياة العلمية:

إنَّ من مآثر نور الدين أن حياة الجهاد التي عاشها لم تشغله عن الاهتمام بالعلم سواء بتعلُّمه أو الاهتمام بنشره، فقد عُرف عنه اهتمامه الشديد بالعلم، والمبالغة في العطاء عليه، رغبةً منه في إعادة بناء الدولة بناءً قوياً على أساس من العلم، فحرص على نشر العلم والتعليم بين الناس، وأمر بإنشاء عدد من مدارس الفقه في شتى المذاهب، وكان هو أول مَنْ بنى مدرسةً للحديث^(٥٩).

ولم يكن اهتمامه منصباً على علوم الدين فحسب، بل كان يقدر لعلوم الحياة قدرها؛ فقد كان شديد الاهتمام بالابتكار في سائر المجالات كالفلك وعلم النجوم، وكان يحثُّ العلماء على الابتكار، من ذلك ما فعله مع رضوان بن رستم الساعاتي، الذي صنع الساعات التي عند باب الجامع الأموي بدمشق، حيث كان يخصُّه بالكثير من المال والعطايا، حتى يتقدم في صناعته ويتقنها^(٦٠).

لقد أدرك نور الدين أهمية العلم في إبعاد المشاريع المضادة للمشروع الفاطمي، وأهميته في إتمام مشروع التحرير في وجه الصليبيين، فالتفت بشكل كبير لبناء المدارس وربط الصوفية والخانقاوات، وقد كانت هذه سمة صبغت عصره، فأنشأ العديد منها في المدن من الشمال للجنوب في مدن الموصل وحلب وحمص وبعليبك، واختصَّ دمشقَ بعدد من المدارس والخانقاوات.

وتركَّز عمله في دمشق في ثلاثة اتجاهات:

الأول: العناية بإنشاء المدارس وربط الصوفية، والمدارس في دمشق اهتمت بفقهاء المذهبين: الحنفي والشافعي، وكانت عناية نور الدين بالمذهب الأول أكثر. مع عدم إهمال أصحاب المذهبين المالكي والحنبلي، وأنشأ خانقاه للصوفية.

الثاني: العناية بالحديث الشريف.

الثالث: العناية بتربية الناشئة، عن طريق مكاتب الأيتام.

وخصَّص نور الدين لهذه المؤسسات الأوقافَ الكثيرة، فذكر ابن الأثير أنه قد بلغه من خير بأعمال الشام أن وقوف نور الدين كانت تغلُّ في عام ٦٠٨ هـ - ١٢١١ م تسعة آلاف دينار شهرياً^(٦١).

ومن أبرز هذه المؤسسات:

_ المدرسة النورية الكبرى:

أسَّسها نور الدين، وجعلها وقفاً على الحنفية، وأول من درس بها شيخ الحنفية بهاء الدين بن عسكر بن العقادة (ت: ٥٩٦ هـ - ١١٩٩ م). ووصف ابن جبير المدرسة النورية عندما زارها سنة ٥٨٠ هـ بأنها من أحسن مدارس الدنيا منظراً، بل وصفها بأنها قصر من القصور الأنيقة^(٦٢).

(59) الدارس في تاريخ المدارس، النعمي، ج 1، ص 149.

(60) الدارس في تاريخ المدارس، النعمي، ج 1، ص 433.

(61) الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية، ابن الأثير، ص 172.

(62) تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ابن جبير، ص 256.

ـ دار الحديث النورية:

تجلت عناية نور الدين بالحديث الشريف بينائه أكبر دار للحديث بدمشق، وهي دار الحديث النورية التي درّس فيها المحدثُ تقيُّ الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر صاحب تاريخ دمشق^(٦٣) (ت: ٥٧١ هـ).

كما شيّد نور الدين للصوفية خانقاه^(٦٤)، وعيّن لهم من ينظر في أمر زواياهم، وهو الشيخ أبو الفتح عمر بن علي بن حمويه.

وكان للأيتام جزءٌ من العناية فأنشأ دوراً لهم وأجرى لهم الأوقاف^(٦٥)، بل جعل وقفاً خاصاً لمن يتفرغ لتعليم الأيتام الخطّ والقراءة حيث كان لهم نفقة وكسوة^(٦٦).

لقد تفقّه نور الدين على مذهب أبي حنيفة^(٦٧) وروى الحديث^(٦٨)، وكان حريصاً على حضور مجالس العلم^(٦٩)، فطبع الدولة بطابعه، لدرجة أنه قد قيل في وصف بلاد الشام أنها: «كانت قبل نور الدين خالية من العلم وأهله، وفي زمانه أصبحت مقراً للعلماء والفقهاء والصوفية»^(٧٠).

كما كان على قناعة تامّة بأهمية وجود العلماء الريائيين على رأس القيادة، فتحرير الأرض ليس عملاً سياسياً أو عسكرياً فحسب، بل هو أوسع من ذلك بكثير، لذلك فالنشاط العلمي في أيامه لم يكن ترفاً فكرياً أو مجرد تقليد متبع في أجهزة الدولة، بل حلقة مهمة في عملية الصراع التي كانت بحاجة لجيل واعٍ متمسك بهويته عالم بخطورة المشاريع في عصره^(٧١).

إن أمةً يسوسها العلماء والمختصون يمكن أن تزدهو فيها شجرة المعرفة، ويذكرنا فعل نور الدين في دعم العلماء والاعتماد عليهم بمنهج عمر بن عبد العزيز. فقد منح نور الدين العلماء مكانة فاقت الأمراء والقادة في دولته، وبذل لهم العطاء بسخاء، واهتم بشكل كبير بخريجي المدارس النظامية التي كان لها أبرز المهام في ساحة الصراع في القرنين الخامس والسادس الهجريين، كالقاضي كمال الدين بن الشهرزوري، والقاضي شرف الدين بن أبي عصرون، والعماد الأصفهاني، والقطب النيسابوري.

لقد أصبحت دمشق في عهده مركزاً لهجرة العلماء من شتى أنحاء العالم الإسلامي، وشارك كثير منهم في الجهود التي كان نور الدين يقوم بها^(٧٢)، وقد استمع لهؤلاء العلماء الذين لم ييخلوا بنصيحته،

(63) سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج 20، ص 554.

(64) الخانقاه: بالكاف أو بالقاف، كلمة فارسية معناها بيت، حدثت في الإسلام في حدود سني الأربعمئة للهجرة لتختلي الصوفية فيها لعبادة الله. الخطط، المقرزي، ج 2، ص 414.

(65) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، عبد المجيد أبو الفتوح بدوي، ص 217.

(66) البداية والنهاية، ابن كثير، ج 16، ص 481.

(67) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج 10، ص 57.

(68) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج 10، ص 57.

(69) الدولة الزنكية، علي الصلابي، ص 227.

(70) الروضتين في أخبار الدولتين، أبو شامة، ج 1، ص 62.

(71) الدولة الزنكية، علي الصلابي، ص 242.

(72) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، عبد المجيد أبو الفتوح بدوي، ص 223.



ولو كان النصح شديداً، فقد أورد ابن كثير نصيحة أبي عثمان المنتخب بن أبي محمد البحري الواسطي في أبيات كتبها لنور الدين بشأن الضرائب، يقول له فيها :

مَثَلٌ وَقُوفَكَ أَيُّهَا الْمَغْرُورُ ❖ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاءُ تَمُورُ

فلما سمعها نور الدين رحمه الله تعالى بكى، وأمر بوضع المكوس والضرائب في سائر البلاد^(٧٣).

رابعاً _ الحياة الاجتماعية:

لقد حرص نور الدين على توفير الخدمات الاجتماعية المتنوعة، فعمل على فكاك الأسرى وتأمين قضايا المسكن والملبس والمعاش وصولاً للحاجات الفكرية، فبنى البيمارستانات والملاجئ ودور الأيتام، والمدارس والخانات والربط والجسور والقناطر والقنوات والأسواق والحمامات والطرق العامة والحصون والخنادق والأسوار والأوقاف والخوانق والربط، وازدهرت المكتبات، وكل هذا انعكس على معيشة السكان خاصة مع تقليص نظام الضرائب وتخفيف عبئها عن الأهالي^(٧٤). ففي سنة ٥٦٩ هـ استدعى نور الدين رؤساء دمشق ومقدمي الحارات والشيخوخ، وطلب منهم تقديم أسماء المحتاجين في كل حي أو منطقة ينتمون لها، سواء كان المحتاج يتيماً أو أرملة أو حتى رجلاً فقد عمله.

١_ المساجد:

أصلح نور الدين أحوال المسجد الأموي، وأضاف لأوقافه المعلومة الأوقاف التي لم تعد تُعرف شروط واقفيها، وأطلق عليها مال المصالح، وأمر بإحصاء المساجد التي هُجرت أو خربت في دمشق، فزادت عن مائة مسجد، فأمر بعمارته وعين لها أوقافاً^(٧٥)، وكانت أشهر مرافق التعليم في الجامع الأموي بدمشق:

_ الزاوية الغزالية في الجهة الشمالية الغربية من الجامع، يُدرّس بها الفقه الشافعي، وبها تخرّج كثير من العلماء، وتُنسب للشيخ أبي حامد الغزالي (٥٠٥ هـ).

_ السبع المجاهدي وهو المكان الموجود داخل الجامع بمقصورة الخضر، ويُقصد بالسبع قراءة سبع من القرآن، ويُنسب للأمير مجاهد أبو الفوارس أحد مقدمي الجيش في عهد نور الدين.

_ الحلقة الكوثرية: تحت مئذنة العروس، وقفها نور الدين على صبيان صغار وأيتام يجتمعون كل يوم بعد صلاة العصر، وتجاوز عدد الصبيان ثلاثمائة طالب^(٧٦).

_ مجلس الحافظ ابن عساكر يُملي فيه على طلابه، خاصة قبل إنشاء دار الحديث النورية.

_ حلقة إقراء قبة النسر.

(73) البداية والنهاية، ابن كثير، ج 16، ص 489.

(74) الدولة الزنكية، علي الصلابي، ص 290 وما بعدها.

(75) الدولة الزنكية، علي الصلابي، ص 298.

(76) الدولة الزنكية، علي الصلابي، ص 299.

وإضافة لاهتمام نور الدين بالجامع الأموي فقد أنشأ جامع القلعة في قلعة دمشق، وأوقف عليه الأوقاف^(٧٧).

٢_ البيمارستانات:

بنى في دمشق البيمارستان النوري الذي يُنسب إليه، والذي قال عنه ابن الأثير: «بنى البيمارستانات في البلاد، ومن أعظمها البيمارستان الذي بناه بدمشق».

وقد اشتهر البيمارستان النوري في دمشق بتدريس الطب إلى ما بعد زمان نور الدين، وقد أشار إلى ذلك ابن أبي أصيبعة في كتابه وهو يترجم لعدد من الأطباء، فالبيمارستان كان في ذلك العهد هو المكان الرئيسي لمهنة الطب والصيدلة من حيث التدريس والتطبيق، فكانت البيمارستانات مكاناً للتعليم والصحة، تجري فيها مجالس العلم التي كان يعقدها المختصون بصناعة الطب وتدريسه^(٧٨).

٣_ الخوانق والرُبط:

وهي من أهم مراكز الصوفية في العهد الزنكي، وكانت دوراً للتعليم شاركت في تعليم العلوم الشرعية، إضافة لمهمتها الأساسية في ممارسة التصوف سلوكاً، بُنيت بغرض إيواء الصوفية الذين كانوا يُخلون أنفسهم لعبادة الله، فحُصِّصت لهم لإقامتهم حيث وفّرت لهم أسباب الراحة والعيش، ليتفرغوا للعبادة وطلب العلم، من خلال بعض الأوقاف.

وبرزت في دمشق إلى جانب خانقاه القصر الخانقاه الأسدية التي تُنسب لأسد الدين شيركوه، وخانقاه الطاحون والخانقاه السُميساطية، إضافة للرباط البياني الذي أوقف عليه نور الدين وأعان على إنشائه^(٧٩).

٤_ المكتبات:

كانت المكتبات بمثابة دور للتعليم، يُتفق عليها الأمراء والعلماء لنشر العلم بين الناس، خاصة مع عدم وجود الطباعة، فالمكتبات تُعدُّ القاعدة التي تستند عليها مختلف الجهود الثقافية في المجتمع، لدرجة أنه يُمكن اتّخاذها المعيار الذي يُحكّم به على تقدّم هذا المجتمع.

وقد كانت الكتب تُنسخ على أيدي نُسّاخ مُختصّين، وبسبب قلة عدد النسخ وارتفاع الأسعار نشأت فكرة جمع الكتب في مكان واحد ليسهل على طلاب العلم الاطلاع عليها والاستفادة منها، وهذا ما عرف بخزائن الكتب.

لقد اهتم نور الدين بتأسيس المكتبات في المساجد والمدارس، فقلما نجد داراً تعليمية تخلو من مكتبة تتبعها مزودة بمجموعة من الكتب، وأوقف الأوقاف للصرف على المكتبة والمشتغلين بها.

(77) الدارس في تاريخ المدارس، النعمي، ج 2، ص 341.

(78) على سبيل المثال ذكر ابن أبي أصيبعة، في ترجمة شمس الدين بن اللبودي، وقدمه لدمشق بعد سنة 613 هـ، بأنه عمل في البيمارستان كمدرس وطبيب. وكذلك في ترجمة أبو المجد بن أبي الحكم 628. عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص 662.

(79) طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين السبكي، ج 7، ص 318.

٥_ الاهتمام بالأيتام والأرامل:

شاء القدر أن تكون دولة نور الدين دولة حرب، فكانت أعداد الأيتام والأرامل في ازدياد، وكان يُولي هذا الأمر اهتماماً بالغاً، بصرف مخصصات لهم من مال وكساء، ولم يكن اهتمامه فقط بأولاد من مات في المعارك بل حتى من كانت وفاته طبيعية، وفي سنة ٥٦٩ هـ اجتمع برؤساء دمشق ومشايخها، وطلب منهم أن يُعرفوه بأسماء الأرامل والأيتام في أحيائهم، فأمر لهم بالأموال والعطايا^(٨٠).

٦_ بناء الحصون والخانات وغيرها:

اهتم نور الدين بالعمران، لخدمة السكان، فالحصون وأسوار المدن والقلاع لحماية السكان وصد هجمات العدو وحفظ المون والسلاح، والأسواق والخانات والحمامات والقناطر والجسور لتسهيل العمل بالزراعة والتجارة، من أجل تحقيق الكفاية وتحسين المعيشة وزيادة موارد الدولة.

أنفق نور الدين الأموال الطائلة على العمران، إضافة لجهوده في إعادة بناء أسوار المدن والحصون التي خربتها الزلازل التي حصلت في سنة ٥٥٢ هـ، وسنة ٥٦٦ هـ^(٨١).

كما بنى الخانات في الطرق، فأمن الناس، وحفظت أموالهم، وباتوا في مأمن من البرد والمطر^(٨٢).

وأقام الأبراج على الطرق للحمام، لنقل الأخبار، فمملكته قد اتسعت وهي في حالة حرب، فظهرت الحاجة لإيصال الأخبار في أسرع وقت، فكانت الرسائل تنتقل من مدينة لأخرى بأسرع وقت، فحفظت الثغور^(٨٣).

الخاتمة:

لقد رأينا كيف انعكست شخصية نور الدين زنكي على الأوضاع في مدينة دمشق، فنقلتها من حال إلى حال.

لقد بدأت دمشق منذ منتصف القرن السادس الهجري بالعودة لدورها في المنطقة، بعد أن كانت محطاً أطماع القوى المتنافسة، وقد تطور وضعها في عهد نور الدين لنهاها:

_ سياسياً تتحول من مركز ضعيف يتعرض لهجمات القرامطة تارة، ومحل نزاع بين الفاطميين في مصر والحمدانيين شمال الشام، إلى عاصمة قوية مرهوبة الجانب، ومن إمارة تدفع الجزية لمملكة بيت المقدس عقيب سيطرة الصليبيين على الساحل الشامي إلى رأس في مشروع التحرير.

_ وإدارياً نجد إرساء قواعد العدل الذي به تحيا الأمم، والأخذ بالشورى والاعتماد

(80) الدولة الزنكية، علي الصلابي، ص 322.

(81) الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية، ابن الأثير، ص 170.

(82) الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية، ابن الأثير، ص 171.

(83) الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية، ابن الأثير، ص 159.



على الرجال وفق كفاءتهم لا حسب انتماءاتهم، ما انعكس على نواحي الحياة، فأمن الناس وتنوعت أنشطتهم وازدهرت بذلك المدينة.

_ أما علمياً فباتت دمشق مقصداً للعلماء وطلبة العلم للدراسة والعمل بها، خاصة بعد إنشاء المدارس كالمدرسة النورية ودار الحديث وغيرها.

_ ومن الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية نجد تحسناً كبيراً في معيشة السكان كنتيجة لما أسسه نور الدين من منشآت وعمران ونظام للأوقاف، إضافة لسعيه الدؤوب للتخفيف من الضرائب التي كانت تثقل كاهل السكان.

وكان من أهم عوامل نجاح نور الدين:

_ أن جهوده جاءت تالية لجهود السلاجقة العظام خاصة في ثمار المدارس النظامية، التي بدأت بالظهور في عهد نور الدين، فبرزت شخصيات لعبت أدواراً كبيرة هي بالأساس من خريجي هذه المدارس.

_ أيضاً من العوامل استفادته من مواهب العلماء في عصره ووضعها ضمن مشروع التحرير، فلم يكن العلم في عصره للترف الفكري، وإنما ينعكس مباشرة في واقع الناس.

_ يُضاف لذلك شخصية نور الدين القوية وصفاته المميزة.

_ مصادر البحث ومراجعته:

_ المصادر:

_ الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية، ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد الشيباني الجزري ٦٣٠ هـ، تحقيق: عبد القادر أحمد طليمات، القاهرة، دار الكتب الحديثة، ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م.

_ البداية والنهاية، ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي ٧٧٤ هـ، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، هجر للطباعة والنشر.

_ البرق الشامي، العماد الأصبهاني، أبو عبد الله عماد الدين محمد بن محمد صفي الدين ٥٩٧ هـ، المحقق: د. فالح حسين، عمان، مؤسسة عبد الحميد شومان، الطبعة: الأولى، ١٩٨٧م، عدد الأجزاء: ٥.

_ تاريخ الأمم والملوك، الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير ٣١٠ هـ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر الطبعة الثانية، أحد عشر جزءاً.

تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي ٥٧١ هـ، تحقيق: عمر بن غرامة العمروي، بيروت، دار الفكر، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ثمانين مجلداً.

_ تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ابن جبیر، أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبیر الكنانی ٦١٤ هـ، بيروت، دار صادر.

_ الجامع الصحيح المختصر، البخاري، محمد بن إسماعيل ٢٥٦ هـ، دمشق، دار ابن كثير ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

_ المدارس في تاريخ المدارس، النعمي، عبد القادر بن محمد الدمشقي ٩٧٨ هـ، أعد فهارسه: إبراهيم شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

_ ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي ٨٠٨ هـ، تحقيق: خليل شحادة، بيروت، دار الفكر، ١٤٣١هـ/٢٠١١م، ثمانية مجلدات.

_ ذيل تاريخ دمشق، ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي التميمي ٥٥٥ هـ، تحقيق: سهيل زكار، دمشق، دار حسان، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

_ سير أعلام النبلاء، الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ٧٤٨ هـ، تحقيق: بشار عواد معروف وآخرين، دمشق، مؤسسة الرسالة.



- شعب الإيمان، البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين ٤٥٨ هـ، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، تسع مجلدات.
- صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري ٢٦١ هـ، عناية: نظر محمد الفاريابي، الرياض، دار طيبة، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.
- طبقات الشافعية الكبرى، السبكي، تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب ٧٧١ هـ، تحقيق: محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م، عشرة مجلدات.
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أحمد بن القاسم السعدي الخزرجي ٦٦٨ هـ، تحقيق نزار رضا، بيروت، دار مكتبة الحياة.
- عيون الروضتين، أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي ٦٦٥ هـ، تحقيق: أحمد البيسومي، دمشق، وزارة الثقافة - إحياء التراث العربي، ١٩٩١م.
- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد الشيباني الجزري ٦٣٠ هـ، تحقيق: أبو الفداء عبد الله القاضي، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، أحد عشر مجلداً.
- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي ٦٦٥ هـ، تحقيق: إبراهيم الزبيق، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، خمسة أجزاء.
- مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، سبط ابن الجوزي، شمس الدين يوسف بن قزأوغلي ٦٥٤ هـ، تحقيق محمد بركات وآخرين، دمشق، دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م.
- معجم البلدان، الحموي، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله ٦٢٦ هـ، بيروت، دار صادر، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، خمسة مجلدات.
- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ٥٩٧ هـ، تحقيق: محمد عبد القادر عطا وآخرين، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المقرئ، تقي الدين أحمد بن علي ٨٤٥ هـ، بيروت، دار صادر، نسخة بالأوفست، مجلدان.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد ٦٨١ هـ، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٦٨م.

ـ المراجع:

- ـ أخبار القرامطة في الأحساء والشام واليمن، سهيل زكار، جمع وتحقيق ودراسة، دمشق، دار حسان، الطبعة الثانية، ١٩٨٢م.
- ـ الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، خير الدين الزركلي، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر، ٢٠٠٢م، ثمانية مجلدات.
- ـ تاريخ السلاجقة في بلاد الشام، سهيل طقوش، بيروت، دار النفائس، الطبعة الثالثة، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.
- ـ التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني من القرن الخامس الهجري وحتى سقوط بغداد، عبد المجيد أبو الفتوح بدوي، المنصورة، دار الوفاء، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- ـ الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى، سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م، مجلدان.
- ـ خطط الشام، محمد كرد علي، دمشق، مكتبة النوري، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ستة مجلدات.
- ـ دمشق مدينة السحر والشعر، محمد كرد علي، القاهرة، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٣م.
- ـ الدولة الزنكية، علي الصلابي، بيروت، دار المعرفة، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.
- ـ صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس، علي الصلابي، د م، مؤسسة زمزم الثقافية، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م.
- ـ الغزو الصليبي والعالم الإسلامي، علي عبد الحليم محمود، د م، دار التوزيع والنشر الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
- ـ المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي، عماد الدين خليل، دار ابن كثير.
- ـ مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين، عبد الله بن سعيد الغامدي، السعودية جامعة أم القرى، مركز بحوث الدراسات الإسلامية، ١٤١٤هـ.
- ـ الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، سهيل زكار، تأليف وتحقيق وترجمة، دمشق، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.